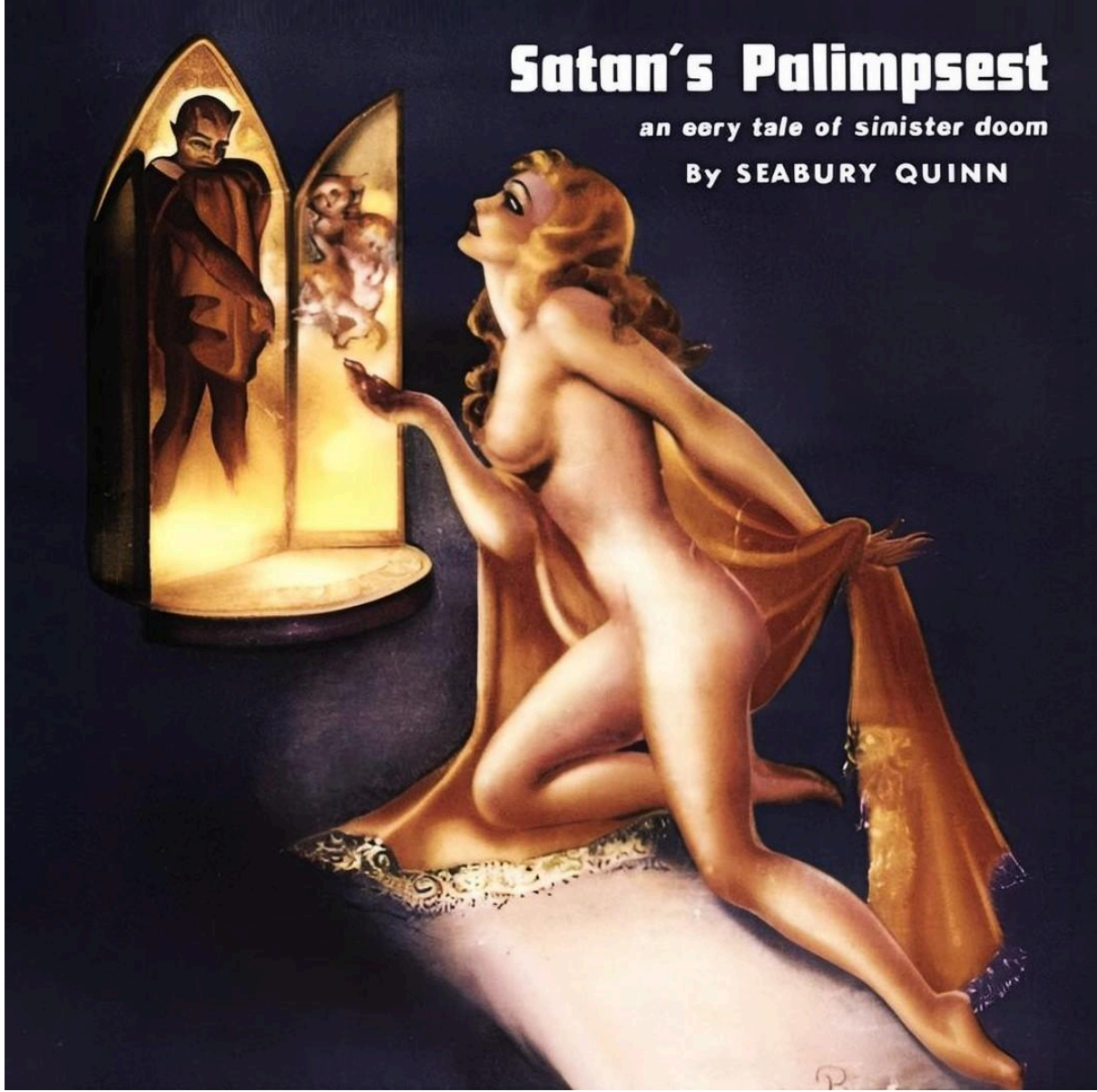


# مخطوطة الشيطان المظموسة

كتبها سيبوري كوين في عام 1938 ونشرت في مجلة قصص غريبة *Weird Tales*



كان الهلاك الذي انبعث من تلك الصورة الفسيفسائية المعلقة على الجدار هلاكاً غريباً، وكان أثرها شراً خالصاً. وهذه واحدة من أعجب حكايات جول دو غراندان، صائد الأشباح الاستثنائي.

كانت الأمسية التي أقامها فيليب كلاسون في منزله الكبير "سانتس ريس" القائم على ضفة الشروزبري أمسية بهيجة على نحو ما، وإن كانت تجمع ضيوفاً لا رابط واضحاً بينهم: نجمة سينمائية، وكاتباً مسرحياً كان يشرب نفسه إلى الموت في صمت، وواحداً أو اثنين من رجال المصارف، ومحامياً، وعدداً من السيدات غير المتزوجات اللواتي يعشن في رخاء على ما تركه لهن الماضي من مهر أو نفقة، ثم جول دو غراندان وأنا.

كان العشاء متقناً إلى حد الكمال. حساء السلحفاة، وشرائح السمك بصوص بيرسي، وطائر التدرج الكندي، وتشكيلة من النبيذ جعلت عيني صديقي الصغير الزرقاوين تتألقان إعجاباً. وبعد الطعام، جلس دو غراندان إلى جوار الممثلة كارين كيرستن على الأريكة الكبيرة أمام موقد تتأجج فيه أخشاب التفاح، يحتسي البراندي من كأس يشبه برعم اللوتس، وبدا وكأنه في سلام كامل مع العالم.

سمعته يقول لها في لحظة صمت بين عزف البيانو:

— بل بالتأكيد يا جميلتي، إنها حقيقة لا شك فيها. الأفكار أشياء. قد لا نراها ولا نلمسها، ولا نستطيع أن نزنها في ميزان، لكنها تملك مادتها الخاصة. يمكنها أن تنفذ وتتخلل أصلب الأشياء، وتبقى عالقة بها كما تبقى رائحة الورد في الشيء حتى بعد أن يبليه الزمن أو يحطمه العنف.

فقال مضيفنا كلاسون عبر ظهر الأريكة، واضعاً إحدى يديه على كتف الفرنسي الصغير والأخرى على ذراع الممثلة اللامع، وقال بنبرة فيها شيء من السخرية:

— أنت واثق من هذا يا دو غراندان؟

ابتسم صديقي وقال:

— واثق بقدر ما يستطيع المرء أن يثق بأي شيء. اليقين المطلق لا يكون إلا عند المحقق.

ضحك الحاضرون، فلها هدأت الضحكات أشار كلاسون إلى باب تغطيه ستائر كثيفة وقال:

— لدينا فرصة لاختبار نظرية الدكتور دو غراندان. هناك شيء في غرفة البنادق أود أن أريك إياه وأرى ما الأثر الذي سيتركه فيكم.

قادنا عبر الرواق الواسع المضاءة أرجاؤه بمصباحين متدليين على هيئة زورق، يشعان بذلك الضوء الباهت الغريب الذي لا يصدر إلا عن زيت الزيتون المحترق. ثم أزاح الستائر التركية الثقيلة وأشار إلينا بالدخول.

كانت غرفة البنادق من بقايا الأزمنة القديمة، حين كانت البندقية مصدراً يومياً للحوم كما كانت الحظيرة والمروج وساحة الدواجن. وكان أحد أسلاف كلاسون، من بناء السفن في الأيام التي كانت فيها المراكب الأمريكية ترسو في كل ميناء من بومباي إلى ساوثامبتون، قد شيد "سانتس ريبست" بالصلافة نفسها التي شيد بها سفنه.

وكان المكان فاتناً بحق. طاولة إيطالية من خشب الجوز لا يقل عمرها عن القرن الخامس عشر، وكراسٍ فرنسية من خشب الورد مكسوة ببروكار لا بد أن ثمنه يساوي وزنه ذهباً، وخزانة صينية مطلية باللك تعود إلى زمن أسرة هان، وعلى أحد الجدران سجادة فلهنكية قديمة تمثل مشاهد تنضح بفجور عصرها.

أشعل كلاسون بمشعنة مصباحين زيتيين، ثم أشار إلى طاولة من خشب أبيض تشبه المذبح وقال:

— هذا هو.

وخيل إلي أنني سمعت مع عبارته تلك شهقة قصيرة تكاد تكون أنين ألم.

كان الشيء الموضوع على الطاولة يشبه بيت القربان في مذابح الكنائس الكاثوليكية. ارتفاعه قدمان تقريباً، وعرضه ثمانية عشر إنشاً، يتخذ هيئة قوس قوطي مدبب، خالٍ من الزخرفة، يلعب بذهب مطفاً تحت الضوء المتأرجح.

بدأت الأسئلة تتطير، لكن كلاسون رفع يده وقال:

— هذا مجرد الإطار. انظروا.

ضغط نابضاً خفياً، فانفجرت مصراعان توأمان كاشفين عن ثلاث صور مندمجة في عمل فسيفسائي واحد.

على الجهة اليسرى، ظهرت مجموعة من الشبان والفتيات الراقصين يرتدون ملابس إغريقية قديمة كما عدلت في بيزنطة. وعلى الجهة اليمنى أطفال حبواً، عراة ممتلئون بتلك السمنة المحببة إلى الفن القديم. وفي الوسط، بين المصراعين، وقف رجل نحيل شاحب ذو هيئة ناسك، يلف خصره شعر الجمل، وينتعل صندلاً خشناً، وفي يده عصا تعلوها صليب.

لقد عمل الفنان القديم بدهاء مذهل. كانت الخطوط الفاصلة بين قطع الرخام الملون أدق من شقوق الخزف الصيني المتشقق، ولم تضع أي تفصيلاً. أما عينا القديس الزرقاوان فبدتا حزينتين على نحو عميق غير مألوف، وكأنهما تحذقان فينا بعتاب صامت، قائلتين: انظروا إلى هؤلاء الأطفال، إلى هؤلاء الشبان الراقصين، فكل هذا ينتهي إلى الشيخوخة والموت والتحلل. باطل الأباطيل، الكل باطل.

بعد صمت قصير، قال كلاسون:

— حسناً؟ ماذا ترون؟

قال بعضنا: صورة مقدسة. وقال آخرون: جميلة، رائعة، إلهية، بديعة.

لكنه كرر بالحاح:

— نعم، لكن ماذا ترون بالضبط؟ ما الذي تمثله الصورة؟

قلت متردداً:

— قديس...؟

فقال، وفي صوته لهفة لا تبرزها بساطة الأمر:

— هذا ما ترونه كلكم؟

كنت على وشك الالتفات إلى الخزانة الصينية حين شعرت بيد دو غراندان على مرفقي. همس:

— راقبها.

وأشار بعينه إلى كارين كيستن.

أدركت أنها لم تقل شيئاً منذ دخلنا، ولم تبدِ رأياً في جمال الأيقونة. لكن ما رأيته بعد ذلك لم أكن مهياً له.

كانت واقفة تحديق في الصورة الثلاثية، رأسها مائل إلى الخلف، ويدها متدلّيتان على جانبيها. وكان الضوء ينساب على جسدها فيبرز جمالها بطريقة لم ينجح فيها أي مصور سينمائي من قبل. كانت طويلة، تكاد تلامس الستة أقدام، وكل خط فيها طويلاً لكنه أنثوي بلا لبس. شعرها كخيوط فضة منسوجة، مجدول حول رأسها، وبشرتها المضيئة يزيداها فستانها الأخضر التفاحي نعومة وإشراقاً. وفي معصمها سواران من ذهب منحوت، وعلى عنقها عقد من اللؤلؤ، حتى بدا لي أن بريق اللآلئ يوشك أن يطابق لمعان بشرتها.

أما عيناها الجليديتان الزرقاوان، فقد تبدل فيهما شيء مفزع. اتسعت الحدقتان حتى كاد السواد يبتلع الزرقة. ورأيت انخوف يتسلل إليهما... خوفاً هاوياً، غائراً، لا يشبه الفزع العابر، بل ينبثق من قلب أصابه الغثيان.

وفجأة قطع كلاسون ذلك السحر قائلاً بخشونة:

– هذا كل شيء. هيا بنا نعود ونشرب شيئاً آخر.

وحين عدنا إلى غرفة الجلوس، سألته السيدة دورستين:

– لكن لماذا أصررت أن نخبرك بما رأيناه يا فيل؟ إنها مجرد فسيفساء جميلة، أليس كذلك؟

فضحك ضحكة محرجة وقال:

– مجرد مزحة. ألا تلاحظين كم يسهل حمل الناس على الشك في حواسمهم؟ لقد استضفت هنا أشخاصاً أقسموا أنهم رأوا أشياء شتى، بل قال بعضهم إنهم رأوا الأشكال تتحرك. يبدو أنكم مجموعة متزنة الرؤوس، فلم يحالفني الحظ معكم.

مرّت بقية السهرة وسط الشراب والغناء والرقص وبعض القصص الجريئة. وبحلول منتصف الليل كنت قد أقنعت نفسي أن ما رأيته على وجه الأنسة كيرستن لا بد أنه وعكة صحية عابرة. لكن ونحن نقف عند الدرج لنقول تصبحون على خير، وضعت يدها على ذراعي وقالت:

– أنت والدكتور دو غراندان جئتما بالسيارة من هاريسونفيل، أليس كذلك يا دكتور تروردج؟

ورأيت مرة أخرى ذلك الوميض نفسه من الرعب في عينيها.

قلت:

– نعم.

قالت:

– كم ستبقين؟

أجبت:

– حتى الإفطار فقط، للأسف.

فقاطعتني:

– ألن تأخذاني معك؟ أرجوك. لا يوجد قطار قبل الظهر، وأنا أكاد أجن في هذا البيت منذ اليوم. يجب أن أغادره بأسرع ما يمكن. يجب... يجب!

فطمأنتها أنني ودو غراندان سنسعد بأن نصحبها معنا في طريق العودة، فضغطت أصابعها الطويلة على ذراعي بقوة لم أتوقعها وقالت بصوت نصفه امتنان ونصفه هلع:

— شكراً لك يا دكتور.

ثم أشعلت شمعتها وصعدت.

في غرفتنا، وقف دو غراندان عند النافذة يحدق في الظلام المنثور بالثلج، كأنه يحاول أن يقرأ فيه شيئاً. سألته ما الأمر، فقال عبارته المألوفة الغريبة:

— هناك كلب أسود يركض في دماغني.

ثم أوضح أنه لا يملك فكرة واضحة، بل إحساساً. وقال إن ما يحيرُه ليس فقط خوف كارين، بل إصرار كلاسون على سماع شهادة ضيوفه بأنهم رأوا مجرد صورة بريئة. ثم أخبرني أنه، للحظة خاطفة، خيل إليه أن قطع الفسيفساء تحركت وتبدلت، وكأن الصورة أوشكت أن تتخذ شكلاً آخر. لم يستطع الإمساك به، لكنه أحس بأنه كان شيئاً فاحشاً ومدنساً، كقرقر يرقص فوق مذبح مقدس.

قال:

— تعال. لنذهب وننظر إليها من جديد في هدوء الغرفة الخالية.

خرجنا على أطراف أصابعنا، لكننا لم نبتعد أكثر من خطوات حتى رأينا كارين كيرستن تصعد من الطابق السفلي في صمت. انكسنا في تجويف باب غائر. كانت في ثوب نوم أبيض، رأسها مرفوع، وعيناها معلقتان إلى أعلى كما لو كانت تستجدي رحمة غير منظورة. كانت مشدودة كوتر آلة موسيقية، ووجهها محفوراً بأخايد المعاناة. وفي الضوء الباهت المتسرب من بئر السلم، بدت أشبه بصورة قديسة.

ثم همست بصوت مرتجف:

— يا رب... ارحم.

كدت أخرج من مخبئي بدافع الشفقة، لكن دو غراندان ضغط على مرفقي وهمس:

— الدم.

حينها شعرت بموجة غثيان. كانت على صدر ثوبها بقعة محمرة داكنة في الموضع الذي استقرت عليه يدها.

ما إن ابتعدت حتى اندفعنا نحو غرفة البنادق. كان ضوء مصباح واحد لا يزال يشتعل فيها فوق الطاولة التي تحمل الأيقونة. وحين دخلنا، رأينا المصراعين مفتوحين، لكننا رأينا أيضاً الجسد الملقى أمامها.

كان ذلك الجسد ويندهام فاراداي. كان ميتاً بلا شك. رأسه مائل إلى الخلف، عيناه مفتوحتان الغائرتان، فكه متدلٍ، ولسانه نصف خارج من فمه. وكان مستلقياً على ظهره وذراعه ممدودتان يميناً ويساراً كما لو أنه صُلب. ومن الجانب الأيسر من صدره برزت قبضة مذهبة على هيئة صليب لخنجر رفيع من طراز قديم، حاد ودقيق، وقد لَوّن الدم قماش بيجامته حول موضع الطعنة.

وليس في الموت العاري جمال كما يظن الشعراء. كان فاراداي، على تلك الحال، مجرد جثة يعبث بها الصمت.

ثم وقعت عين دو غراندان على الأيقونة، وهتف:

— انظرا!

نظرت. وبدا لي أن قطع الرخام الملون التي تكوّن الصورة الثلاثية تناسب عبر بعضها، وتفقد هيئتها القديمة، ثم تعيد ترتيب نفسها في تجميعات جديدة. لم أستطع أن أقول أي مشاهد كانت تشكل، لكن موجة غثيان اجتاحتني، شبيهة بما يشعر به المرء أول مرة يشم فيها رائحة اللحم البشري المتحلل.

ثم عاد إليّ العقل. كان المصباح المتدلي فوق الأيقونة يتأرجح، فظننت أن تبدل الضوء والظل هو السبب. فأمسكت المصباح وثبته. وحين نظرت ثانية عادت الصورة إلى هيئتها الأولى الوديعة.

لكن دو غراندان ثار عليّ ثورة حقيقية. قال إنني، بحماقتي، محت كل بصمة أصابع قد تكون على المصباح، وإن من لمسه قبلنا قد يكون هو نفسه من حرّكه بعد الجريمة. ثم قال إن ذلك التشوه الذي رأيناه في الأيقونة قد يكون جوهر القضية كلها، وإن كلاسون لا بد أنه رأى فيها شيئاً آخر من قبل، كما رأت كارين، وكما لمح هو نفسه لمحة سريعة. وانتهى إلى أن الأمر بات في يد الشرطة.

جاء الكابتن شينيفير من شرطة الولاية، وفحص المكان. كانت البصمات على مقبض الخنجر هي بصمات فاراداي نفسه، لكن هيئة الجسد لا تنسجم مع انتحار عادي. وقد بدا عليه الضيق والحيرة. وكدت أفصح عن شكّي في كارين، لكن دو غراندان ركمني تحت الطاولة ركلة كادت تكسر عظمي، فاكتفيت بالتلثم.

قرر شينيفير منع كل من في البيت من المغادرة مدة ست وثلاثين ساعة.

وحين أبلغت كارين كيرستن بذلك، كادت تفقد أعصابها. قالت إنها يجب أن تكون في نيويورك، وأن لها محامين وطائرة تنتظرها إلى الساحل الغربي، وإنما لا تستطيع أن تبقى دقيقة أخرى في هذا المكان. لكن تحت نظرة دو غراندان الثابتة هدأت فجأة. ثم واجهها بما رأيته ليلاً: صعوها السلم، اضطرابها، الدم على ثوبها. وأنكرت أولاً، ثم انهارت واستسلمت.

قالت إنها نعم، كانت هناك. وإنما وجدت فاراداي عند الأيقونة. وإنما مددت ذراعيه على هيئة صليب. في البداية قالت إنها فعلت ذلك بدافع الشفقة، لعل هيئة الصليب تساعد في التماس الغفران. لكن حين ضغط عليها دو غراندان، اعترفت أنها فعلت ذلك أيضاً بدافع خوف أعمق: خرافة سويدية قديمة تقول إن المنتحرين يعودون من طريقهم في الحجيم بحثاً عن رفقة، لكن الصليب يقطع عليهم العودة.

ثم روت لنا أنها كانت منذ وطئت قدمها البيت تشعر بأن عيوناً كثيرة تراقبها من الخلف. عيوناً شريرة، حاسبة، ماكرة، كأن شيئاً يحاول أن يتسلل إلى داخل عقلها ويذاحمها على وعيها نفسه. وقد عرفت كلاسون عبر فاراداي، وأخبرها أن أثن ما في البيت أيقونة بيزنطية جلبت من القسطنطينية بعد نهبا. ولأنها مولعة بالتحف القديمة، فقد أثار الأمر فضولها.

لكنها قالت إنه ما إن دخلت غرفة البنادق ورأت الأيقونة حتى عرفت أنها مركز الشبكة كلها. قالت إن الحجارة الملونة بدت كأنها تذوب وتنساب، ثم تتحول إلى سطح رمادي كالمرايا الرصاصية، ثم بدأت تظهر فيها صور أخرى. الشبان والفتيات الراقصون بدا أنهم يشيخون في لحظات، والأطفال تحولوا إلى مسوخ متورمة، أما القديس... فتوقفت عنده، وقالت إنها لا تستطيع أن تصف ما رآته، لكنها تعرف أنه كان تحولاً رهيباً.

ثم شرحت كيف عادت بعد منتصف الليل إلى الغرفة، مدفوعة بفضول مرضي شبيه بما كانت تشعر به وهي طفلة أمام صورة تين مخيفة في كتاب قديم: كانت تعرف أنها ستفزع، ومع ذلك لم تستطع أن تمنع نفسها من العودة. وحين دخلت، كان المصباح لا يزال يتأرجح، وتعثرت بجسد فاراداي. وهناك ضرب عقلها خاطر واحد بعنف: الصورة هي التي جعلته يفعل ذلك.

ثم قالت إنها رأت لطفة دم على ظاهر كفه، فعرفت من ذلك أنه هو من دفع الخنجر إلى نفسه. فسحبت الدم عن يده، ومسحت يديها بثوبها، ومدت ذراعيه، ثم عادت إلى غرفتها.

قال لها دو غراندان إنه يصدقها، لكن الشرطة قد لا تفعل، ولهذا يجب أن نصمت نحن الثلاثة مؤقتاً.

بعد ذلك قرر أن يتحدث مع فيليب كلاسون، لكن الرجل اختفى. بحثنا عنه في البيت، ثم عدنا إلى غرفة البنادق، فوجدنا خلف الستارة التركية باباً منزلقاً ثقيلاً قد أُغلق بإحكام. طرقتنا ونادينا فلم يجب. فاستدعى دو غراندان الحارس الشرطي وأجبره على المساعدة في كسر الباب.

ولما انفتح، وجدنا الجثة الثانية.

كان فيليب كلاسون مائلاً إلى الأمام، ركبته نصف مثنيتين، ويده متدلّيتان حتى تكادان تلامسان الأرض، ورأسه مائلاً على نحو مشوه. وكان حبل يلتف حول عنقه، وطرفه الآخر مربوطاً بحلقة المصباح المتدلي. لكن الحبل كان أطول من أن يسمح بشنق عادي، لذا كان قد اضطر إلى أن يميل إلى الأمام ويكاد يجثو ليولد شداً يكفي لنخق نفسه. كان بإمكانه في الثواني الأولى أن ينجو لو وقف معتدلاً فقط، لكن فقدان الوعي يأتي سريعاً حين تُضغَط شرايين العنق.

بعد انقضاء فوضى التحقيقات، صعدت مع دو غراندان إلى الغرفة، وسألته مباشرة: ما نظريته؟

فقال إنه أمضى النهار يقرأ في مكتبة كلاسون، وإن ما وجده يفسر الكثير. قال إن بيزنطة لم تكن في أعماقها مسيحية خالصة، وإن كثيراً من الطقوس الوثنية القديمة ظل يعيش متخفياً تحت قشرة المسيحية. قال إن بعض المصليات كانت تبدو في الظاهر أماكن مقدسة، بينما تخفي في داخلها عبادات أخرى. وإن بعض الصور والأواني كانت تُشحن، عبر الطقوس والتكثيف المتعمد، بإرادة شريرة تجعلها تحمل وجهاً آخر لا يظهر إلا في ظروف مخصوصة.

ثم أضاف أن مثل هذه الأشياء، إن صحت الروايات، تحتاج بين حين وآخر إلى ضحية تحفظ لها فاعليتها.

وقال عبارته التي بدأ بها السهرة:

— الأفكار أشياء.

ثم ساق لي تاريخ الأيقونة. نُهبت أولاً من موضع في القسطنطينية ظنه الصليبيون كنيسة. ثم انتقلت إلى البندقية، وهناك وُضعت على مذبح كنيسة، فبدأت تحدث حولها أشياء منحرفة: نساء صالحات يخرفن، ورجال أتقياء تستيقظ فيهم شهوات وعنف غير مألوفين. ثم نُقلت إلى دير فرنسي، وتكررت الفضيحة. ثم انتهت إلى يد نبيل إنجليزي فاسد، عاش حياة مجون وانتهى إلى الإفلاس والسجن. ثم اشتراها عم كلاسون، وظلت منسية حتى وُضعت أخيراً في غرفة البنادق.

قال دو غراندان إن كلاسون كان يرى شيئاً في الصورة، لكنه لم يكن من النوع الذي يلجأ إلى تفسير روحاني، ولهذا أخذ يختبر الآخرين: إن رأوا ما يراه فهو ليس مجنوناً، وإن لم يروا فربما كان الخلل فيه هو.

سألته: وما الذي دفع فاراداي إلى الانتحار؟

فقال إن النشوة، أياً كان نوعها، لا تُناقش بالعقل. المتصوفة ينسون الألم، والمرتاضون يعذبون أنفسهم دون أن يشعروا، وعباد الآلهة القديمة جرحوا أجسادهم في حالات الوجد. أما فاراداي، فكان رجلاً مرهفاً، عصبياً، أنهكته التجارب، وصارت التجربة القصوى نفسها إغراءً له. وقد لمست الأيقونة، وسحرت، وأرعبت، وأثارت، حتى قادته إلى حتفه.

ثم قال إن الخطر لم ينته بعد، لأن كارين كيرستن ما تزال في الدائرة.

وجأة قفز كأن فكرة صعقته. خرج إلى الممر، ووقف قرب باب كارين، ثم قال بصوت مرتفع عمداً إنه أغلق باب غرفة البنادق بالمسامير، لكن النوافذ ما تزال غير مثبتة. ثم عاد، وجري معه إلى الخارج. قال إنه تعمد أن يجعلها تسمع ذلك، لأنه إن كان الاندفاع ما يزال مسيطراً عليها، فستعرف أن الطريق إلى الغرفة ما زال مفتوحاً عبر النافذة.

دخلنا غرفة البنادق من الخارج، واختبأنا خلف أريكة. وطال انتظارنا في البرد والصمت حتى شعرت أن الليل كله تجدد في العظام.

ثم رفعت النافذة المقابلة ببطء.

دخلت كارين كيرستن.

أشعلت المصابيح، فوفقت في الضوء بوجه يلمع كأنه ليس من عالما. كانت ترتدي حذاءين مبطنين بالفرو، وتمسك بمعطفها الثمين مشدوداً إلى صدرها. وكانت عيناها تتوهجان كعيني حيوان ليلي. وقفت أمام الأيقونة، وصدرها يعلو ويهبط بعنف، وأنفاسها تخرج خشنة متقطعة. ثم أطلقت ضحكة صغيرة حادة، خافتة لكن شديدة التدنيس.

حدقت في الأيقونة بكل كيانها، ثم همست:

— يا سيدي... يا مالكي... يا سيد الجسد والنفس والروح... ها أنا هنا.

ثم طرحت الحذاءين عن قدميها، ورفعت يديها إلى ياقة معطفها، فأسقطته على الأرض، ومزقت ثوبها من العنق حتى الحاشية. فوفقت أمام المذبح عارية تماماً، شاحبة كتمثال من عاج أو رخام مصقول. وكانت جميلة على نحو يكاد يكون طقسياً، حتى بدا العري في تلك اللحظة لا ككشف للجسد، بل كدخول في شعيرة غامضة. وظلت واقفة كتمثال، ثم رفعت يدها اليسرى قليلاً نحو صدرها، وجأة انهارت إلى الأمام على الأرض بلا حراك.

قفزت من مكاني، لكن ما جمديني في مكاني لم يكن سقوطها، بل ما كان يحدث للأيقونة.

المصابيح كانت تتأرجح فوقها، وبدأ وجهها الآخر يظهر. لم يعد هناك قديس ولا أطفال ولا راقصون. بدا كأن الفسيفساء نفسها تدوب وتعيد تشكيل ذاتها. ثم رأيت، ورأى دو غراندان معي، ظلاً.

لم يكن مجرد ظل على الحائط، بل شيئاً بدأ وكأنه يفصل عن الجدار نفسه. ككلمة معتمة لها إيجاء بشري لكنها ليست بشراً، تمتد نحو كارين الملقاة على الأرض. كان أشبه بتكثف من الرغبة السوداء، أو الإرادة الآتمة، أو كل ما تراكم عبر القرون في تلك الأيقونة من شر وشهوة وانحلال.

عندها اندفع دو غراندان إلى الأمام، ورفع صوته بصيحة تشبه التحدي والطردي في آن. ثم هجم على الأيقونة نفسها، وأخذ يحطمها تحطيماً كاملاً.

تناثرت قطع الفسيفساء الذهبية على الأرض، وسقط معها ذلك الحضور. وفي اللحظة التالية، لم يبق في الغرفة إلا امرأة منهارة، وأيقونة محطمة، وصمت كثيف.

في اليوم التالي، سألته:

— ذلك الظل الذي رأيناه، ما كان؟

فأجابني ببساطة:

— فكرة تجسدت.

ثم قال:

— ذلك هو الفكر الشرير الذي صُبَّ، جيلاً بعد جيل، في تلك الأيقونة الملعونة. الفكرة نفسها التي أوحى بالتمرد في السماء، والتي دفعت قابيل إلى قتل أخيه، والتي قادت الأطفال إلى مذابح مولوخ. كل ما هو دنيء وآثم وكريه، وقد تخنَّث في ذلك الخزان الصغير الذي كان ذلك المخطوطة الشيطانية.

سألته:

— لكن لماذا اختاروا أدونيس رمزاً للشر؟

فقال:

— لأن من عبدوا الشر لذاته لم يتصوروه دائماً في هيئة وحش قبيح. أحياناً كان الشيطان يأتيهم في صورة أجمل الشبان: لوسيفر، حامل النور، أو بارون ساتاناس، أو أدونيس، الجميل البارد، الذي لا يرد على العبادة إلا بالكذب وخيبة الأمل. وكان أولئك القوم يونانيين في إرثهم الذهني، واليوناني لا يستطيع أن يتصور إلهاً، حتى لو كان إله الشر، إلا جميلاً.

وفي اليوم التالي، قال الكابتن شينيفير وهو يهز رأسه:

— إنها أغرب قضية رأيتها في حياتي. قتيلان في تلك الغرفة بلا خيط يقود إلى شيء، ثم يدخل شخص في الليل ويحطم قطعة أثرية لا يقدر أحد على تقدير ثمنها. بحق الحجم، يكاد المكان يبدو كأنه مسكون.

فأجابه دو غراندان بوجه خالٍ من التعبير:

— أظن أنك على حق يا حضرة القبطان.

ثم مد يده نحو جرس الخادم، وقال بنبرة عادية على نحو يكاد يكون ساخرًا:

— هل تفضلان الويسكي الاسكتلندي أم الإيرلندي مع الصودا، يا سادتي؟

**تمت**